تقي الدين ابن دقيق العيد

دكتور جابر علامة العصري

المدرس بكلية التربية

هناك من الرجال من أسهموا فى بناء التاريخ بعقولهم وفكرهم وامتلاء شخصياتهم . فالتاريخ ليس بناء سياسيا من صنع الحكام والساسة وارباب السيوف ، وانما هو أيضا بناء حضارى له جوانبة الثقافية والعلمية والاجتماعية والاقتصادية وكلها جوانب لا تقل أهمية عن الجانبين السياسى والحربى فى تشكيل صورة حياة المجتمعات البشرية .

وقد أشتمل عصر سلاطين المماليك فى مصر والشام - فيما بين منتصف القرن السابع الهجرى (الثالث عشر للميلاد) وأوائل القرن العاشر الهجرى (السادس عشر للميلاد) بنشاط واسع فى الحياة الفكرية والثقافية ، وهو نشاط أدت اليه عوامل عده سياسية واقتصادية واجتماعية ، منها ان دولة سلاطين المماليك غدت تمثل واحة الامن والاستقرار فى العالم الاسلامى بعد ان استبد المغول بالجناح الشرقى من دولة الاسلام وتعرض المغرب لهجمات الاوربيين والصليبيين ، ومنها الازدهار الاقتصادى وتوافر الثروة لدولة سلاطين المماليك بعد ان احتكروا التجارة العالمية بين الشرق والغرب ومنها احساس المماليك أنفسهم بدعامة يعتمدون عليها فى تبرير قيامهم ثم بقائهم فى الحكم فلم يجدوا دعامة أفضل من الدين والعلم ورجال الدين والعلم .

والمعروف أن سلاطين المماليك بوجه عام حرصوا على تكريم العلم والعلماء تكريما كبيرا لاتخاذهم ركيزة وواسطة بينهم وبين رعاياهم من أهالى البلاد . وظهر هذا التكريم للعلماء فى صور متعددة منها اضفاء شتى مظاهر الرعاية الادبية والمادية عليهم والحرص على الاجتماع بهم بين حين واخر فى المناسبات الدينية والعلمية وغيرها .

ولعل هذه المكانة السامية التى حظى بها العلماء فى عصر سلاطين المماليك فى نظر الحكام والشعب جميعا ساعدت فى كثير من الحالات على اعتدادهم بأنفسهم وبروز بعضهم على سطح الاحداث ، واسهامهم فى تشكيل الحياة المعاصرة ليس فى الجوانب الفكرية والعلمية والثقافية فحسب ، بل ربما أيضا الحياة السياسية .

وكانت نسبة كبيرة من هؤلاء العلماء من أصول مصرية صميمة ، وليسوا الوافدين على مصر من شتى أنحاء العالم الاسلامى فى الشرق والغرب أو ممن ينحدرون من أصول غير مصرية بعد أن نزح آباؤهم وأجدادهم الى مصر واستقروا فيها . ويكفى أن نشير الى أسماء السيوطى والسخاوى والقلقشندى ..... وغيرهم ممن ينتسبون الى مدن وقرى مصرية صميمة لندرك أن تربة مصر العريقة أفرزت فى ذلك العصر جمعا كبيرا من علماء الفكر والثقافة الذين مازالت مؤلفاتهم تحتل ركنا بارزا فى مكتبة التراث الاسلامى .

ومن المدن المصرية التى اشتهرت فى ذلك العصر بأنها مركز من مراكز الحياة العلمية والثقافية مدينة قوص فى صعيد مصر . وربما ساعد على ذلك موقع هذه المدينة على طريق القافلة عيذاب على البحر الاحمر مما جعلها محطة للتجار والحجاج ، فى عصور تداخلت فيها تيارات الحج والتجارة والعلم ، فاتخذ المعلمون والمتعلمون من رحلة الحج وسيلة للاخذ والعطاء ، ووجد من التجار من اشتغل بالعلم ومن العلماء من اشتغل بالتجارة . ومهما يكن من أمر فان مدينة قوص خرجت فى عصر سلاطين المماليك عددا من رجال العلم أشار الى بعضهم الادفوى فى كتابة الطالع السعيد

مما يدل على انها غدت مدرسة مرموقة للحياة العلمية في صعيد مصر .

ومن علماء هذه المدرسة في القرن السابع الهجري الثالث عشر للميلاد - ابن دقيق العيد المتوفى سنة ٧٠٢ هـ وهو أبو الفتح محمد بن على بن وهب بن مطيع القشيري المنفلوطي الصعيدي المالكي الشافعي(١) .

أما الادفوي فقال في ترجمته " محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري تقي الدين ذاتا ونعتا "(٢)

وترجم له تاج الدين عبد الوهاب السبكي و ابن حجر العسقلاني و ابن تغرى بردى وهم جميعا يتفقون على أن نسب ابن دقيق العيد هو " محمد بن على بن وهب بن مطيع بن أبي الطاعة القشيري المنفلوطي المصري القوص المنشأ المالكي ثم الشافعي أبو الفتح تقي الدين "(٣) .

ولقب أبيه مجد الدين وكنيته أبو الحسن ، وجده مطيع وكنيته أبو العطايا لكرمه وسخاءه وجوده ، كان يلبس في يوم عيد طيلسانا أبيض فقيل كأنه دقيق العيد فسمي به ، أي أن مطيعا هذا عرف بدقيق العيد ، ولما كان على بن وهب حفيده دعاه الناس بابن دقيق العيد ، ومن هنا كانت شهرة تقي الدين محمد بابن دقيق العيد .(٤)

---

(١) الذهبي : تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ٢٧٢
(٢) الادفوي . الطالع السعيد ص ٢١٧
(٣) السبكي : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢
ابن حجر: الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩١
ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ٢٠٦
(٤) الادفوي : الطالع السعيد ص ٢٢٧ =

أما تسميته بالقشيرى فلانة من احفاد بهرز بن حكيم القشيرى [١] والقشيرى بضم القاف وفتح الشين وسكون الياء نسبة الى قشير بن كعب ابن ربيعة بن عامر بن صعصعة قبيلة كبيرة ينسب اليها كثير من العلماء منهم بهرز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى [٢] .

أما عن أمة فانها بنت الشيخ الصالح التقى الورع الزاهد مفرج بن موفق بن عبد الله الدماميني الموصوف بالعلم والفضل [٣]، فاطلة كريمان وأبوة عظيمان [٤] .

ولد الشيخ تقى الدين بن على بن وهب بن دقيق العيد فى يوم السبت الخامس والعشرين من شهر شعبان سنة ٦٢٥هـ بالقرب من ساحل ينبع وأبواه متوجهان الى الاراضى الحجازية فلما قدم أبوه مكة حملة على يده وطاف به الكعبة ودعا له أن يجعلة الله عالما عاملا [٥] .

وهكذا نشأ الشيخ فى بيت من أشرف بيوتات الصعيد واكرمها حسبا ونسبا وأشهرها علما وأدبا وأرفعها مقاما ومنزلة ، فقد كان أبوة ابو الحسن على بن وهب مشهودا له بالتقدم على غيرة فى العلوم [٦] وفقة المالكية ، وكذلك جده لابية وهب بن مطيع فقد عرف بالعلم والفضل والتقى والورع والبذل والعطاء . ومن جهة أمه فهى كريمة المحتد وكفاها أن أباها الشيخ الامام تقى الدين بن المفرج الذى شدت اليه الرحال وقصده الطلاب .

= المقريزى : السلوك ج ١ ص ٨١٣ حاشية ٣
(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٣
(٢) ابن الاثير : اللباب فى تهذيب الانساب ج ٢ ص ٢٦٤
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٦٩
(٤) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ج ١ ص ١٧
(٥) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ج ١ ص ١٦
(٦) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٢٩

وكانت نشأة فى قوص ، تلك المدينة المصرية التى شهدت نهضة ثقافية واسعة النطاق لا تقل عما كانت تتمتع به عواصم العالم الاسلامى من تقدم وازدهار كالقاهرة والاسكندرية ودمشق وحلب من حيث وفرة رجال الدين ، وقد ساعدها على ذلك أنها أصبحت - بعد أن سيطر الطيبيون على العقبة طريق الحج الامين - طريقا سهلا ميسورا بين الشرق والغرب ، فعرفها على أثر ذلك العديد من العلماء والفقهاء والمشارقة والمغاربة فى رواحهم وغدوهم من الاراضى المقدسة فى مواسم الحج أو فى سياحاتهم المختلفة ، وقد اتخذها الكثير منهم دار مقام لهم حتى وفاتهم ، واتخذها صلاح الدين الايوبى قاعدة لمقاومة مذهب الشيعة المتمركز فى اغلب مدن الصعيد ونشر مذهب السنة ، فأنشأ بها العديد من المدارس والجوامع التى تعنى بتدريس فقه السنة ليقضى بذلك على آراء الشيعة وعقائدهم فى الاسلام ، واقتفى طريقة من بعده معظم سلاطين الايوبيين والمماليك ، فبالغوا فى انشاء هذه المدارس والجوامع وشجعوا كذلك العلماء والفقهاء فى تدريس فقه السنة على المذاهب الاربعة ، وأفرطوا فى العطاء لهم ومنحوهم الكثير من الامتيازات والمكافآت فتفجرت فى قوص على أثر ذلك ثورة علمية ثقافية أمتد أثرها الى عواصم العالم الاسلامى ، وقد تمثلت هذه الثورة فى العديد من المدارس والجوامع التى كانت تكتظ بها هذه المدينة بالاضافة الى تلك الجموع الغفيرة من طلاب العلم

= ابن العماد : شذرات الذهب جـ ٦ ص ٥

الذهبى : تذكرة الحفاظ جـ ٤ ص ٢٧٢

ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩١

والمعرفة الذين أخذوا يتوافدون عليها من مختلف مدن الصعيد يتلقون على أيدى هؤلاء العلماء والفقهاء العلوم الاسلامية ويتفقهون فى الدين الاسلامى الحنيف (١) .

وهذا كان البيت الذى انحدر منه ابن دقيق العيد بيت علم ومعرفة ، وكذلك كانت المدينة التى نشأ فيها مدينة علم ومعرفة .

وابتدأ تقى الدين حياته العلمية من النقطة التى بدأ منها كل علماء عصره وهى حفظ القرآن الكريم ، حتى حصل منه على حظ عظيم ، ثم درس فقه المالكية على أبيه وفقه الشافعية على تلميذ أبيه الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطى ، وكان يقول " البهاء معلمى " . ودرس أشياء اقامتة فى قوص النحو وعلوم اللغة ، وقرأ العربية على الشيخ شرف الدين محمد بن أبى الفضل المرسى ، وحضر دروس القاضى شمس الدين محمود الاصبهانى لما كان حاكما بقوص (٢) .

وكان فى صباه أبعد ما يكون عن اللهو والعبث ، وقد ذكروا عنه أنه لعب الشطرنج مع زوج أخته تقى الدين بن ضياء الدين ، فلما جاء وقت صلاة العشاء قاما فصليا ، وبعد الانتهاء من الصلاة قال ابن دقيق العيد لصهره (تعود اليها " (يعنى الشطرنج) فقال له صهره : " ان عادت العقرب عدنا لها " . فلم يعد يلعبها طوال حياته (٣) ،وهذا

---

(١) محمد عبده الحجاجى : قوص فى التاريخ الاسلامى ص ٩٩/١٠٠

(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٩

ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ١٧/١٩

(٣) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ٢٢

يعني أنه كان مثال الجد والاجتهاد ، متقبلا للنصيحة من جهة أخرى .

كذلك كان عزيز النفس ، فقد حكي أنه كان في مجلس شرف الدين محمد بن أبي الفضل المرسي ، فسألهم عن شيء فسكت من بالمجلس فقال شرف الدين : " أراني أتكلم مع حمير " فلم يعد ابن دقيق العيد الى مجلسه بعد ذلك (١).

ويروى الادفوي " أخبرني الشيخ عماد الدين محمد بن حرمي الدمياطي أنه رأى الامير " الجوكندار(٢)" أتى اليه فتحرك له تحريكة لطيفة ، وسكت زمانا ثم قام اليه وقال " لعل للامير حاجة (٣) " .

ثم أرتحل الى القاهرة حيث أتصل بالشيخ العز عبد العزيز بن عبد السلام وأخذ عنه الاصول وفقه الشافعية (٤). وأرتحل الى دمشق فسمع عن أحمد بن عبد الدايم والزين خالد وغيرهما وعاد بعد ذلك الى مصر(٥)،ثم عاد الى قوص وزار شيخة البهاء وتهيأت أثناء زيارته هذه المدرسة المجدية للدراسة ، فطلب منه واقفها أن يدرس بها فأجابة ابن دقيق العيد (٦).

---

(١) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ٢٣
الادفوي : الطالع السعيد ص ٣٢٦

(٢) الجوكندار : هو الذي يحمل جوكان السلطان أثناء لعبة الكرة
د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٤٠٧

(٣) الادفوي : الطالع السعيد ص ٥٨١

(٤) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ١٩

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩٢

(٦) الادفوي : الطالع السعيد ص ٤٠١

وكانت له المقدرة على المثابرة فى طلب العلم مكبا على الاطلاع ، فأخذ يدرس بالمدرسة النجيبية [١] بقوص جملة الكتب الموجودة بها ومنها " عيون الادلة " لابن القصار فى نحو من ثلاثين مجلدا وعليها علامات له . كذلك أطلع على كتب المدرسة السابقية [٢] ، ومنها السنن الكبير للبيهقى ، وتاريخ الخطيب ، ومعجم الطبرانى الكبير ، وكتاب البسيط للواحدى . وذكر الشيخ الفقية سراج الدين الدندراوى " أنه لما ظهر الشرح الكبير للرافعى اشتراه بألف درهم [٣] "

قال البرزالى " مجمع على غزارة علمة وجودة ذهنة وتفننة فى العلوم خبير بصناعة الحديث عالم بالاسماء والمتون واللغات وله اليد الطولى فى العربية والآداب ، كان شيخ البلاد وعالم العصر . وقال ابن الزملكانى " امام الائمة فى فنة وعلامة العلماء فى عصره ، يعرف النحو واللغة واليه النهاية فى التحقيق والتدقيق والغوص على المعانى " [٤] .

درس بالفاضلية [٥] والكاملية [٦] والصالحية [٧] بالقاهرة ، كما درس بالناصرية [٨] قرب مقام الامام الشافعى .

(١) نسبة الى مؤسسها النجيب بن هبة الله القوصى سنة ٦٠٧هـ
الادفوى : الطالع السعيد ص ٢٣٠
(٢) نسبة الى السابق والى قوص الذى أمر بانشائها
محمد عبده الحجاجى : قوص فى التاريخ الاسلامى ص ١٠١
(٣) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ص ٢٢
(٤) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩٣
(٥) نسبة الى القاضى الفاضل الذى أنشأها
(٦) نسبة الى الملك الكامل الذى أنشأها سنة ٦٢١ هـ
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٨
(٧) نسبة الى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أنشأها سنة ٦٣٩هـ
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٩
(٨) نسبة الى الملك الناصر صلاح الدين الذى أنشأها سنة ٥٧٢ هـ
السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٦

وكان للعلوم جامعا وفى فنونها بارعا " ولم يزل حافظا للسانه مقبلا على شأنه وقف نفسه على العلوم وقصرها، ولو شاء العاد أن يعد كلماته لحصرها "(١) فأوقاته كلها معمورة بالدروس والمطالعة أو التحصيل والاملاء ، فان أراح نفسه من بعض ذلك العناء فلا يرى الا قائما يملى فى المحراب أو جالسا يتلو كلام الله أو ماشيا يتفكر فى خلق الله " طالما لازم السهر حتى أصفر وجه الاصباح مشتغلا بالذكر والفكر لابذوات الالفاظ الفصاح والوجوه الصباح " .

وتهدى له الدنيا من الحسن جملة
يهيم بها النساك لو شاهدوا البعضا
فيعرض عنها لاهيا عن جمالها
ويوسعها بعدا ويرفضها رفضا
ويسهر فى ذكر وفكر وفى علا
ومن بات صبا بالعلا جانب الغمضا

فهو منصرف بجسمه وفكره آناء الليل وأطراف النهار الى البحث والتحقيق والاستنباط والتدقيق أو الى الصلاة وتقديس الاله ، وأصدق مرآة لحياته فى هذه الفترة قوله :

الجسم تذيبه حقوق الخدمة
والقلب عذابه علو الهمة
والعمر بذاك ينقضى فى تعب
والراحة ماتت فعليها الرحمة(٢)

---

(١) السبكى: طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٣
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢١٧

" وقد ذكر الشيخ الحافظ ابى الحسين أيبك المصرى عن الصاحب شرف الدين محمد زين الدين بن بهاء الدين قال " كان ابن دقيق العيد يقيم فى منزلنا بمصر فى غالب الاوقات ، فكنا نراه فى الليل امامطيا وإما يمشى فى جوانب البيت وهو يفكر الى طلوع الفجر ، فاذا طلع الفجر صلى الصبح ثم اضطجع الى ان يتضحى النهار ، وظل على ذلك أربعين سنة .(١)

وحكى القاضى معين الدين احمد بن نوح أنه استمع الى الشيخ ليلة وهو يقرا القرآن حتى جاء الى قوله تعالى " فاذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولايتساءلون فما زال يكررها الى مطلع الشمس .(٢)

وشهد له الجميع بكرامات الصالحين وعلامات العارفين، قال ابن سيد الناس أن جمال الدين محمد بن على الهمذانى ذكر له أنهم قرأوا البخارى لدفع البلاء فى وقعة حمص بين التتار والملك المنصور قلاون سنة ٦٨٠ هـ ، فلقى ابن دقيق العيد فقال له : " أنقضى الحال من بعد العصر أمس وبيات المسلمون على كذا ..... ، فقيل له " نخبر عنك " فقال " نعم " فقال له جمال الدين " عن يقين " فقال : " وهل يقال هذا عن غير يقين"، فقال له : " عن معاينة او خبر ، فقال " بل عن خبر " وكان الحال كما قال .(٣)

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩٤/٩٥

(٢) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ٢٢

(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٤

ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩٤

وعندما خرج الامير علم الدين الدوادار[1] مسافرا ، توجه الى أصحابه مودعا ، ودعوا له وقالوا : " نراك فى خير وعافية ان شاء الله " فقال علم الدين : " الشيخ ابن دقيق العيد يقول : " انى ما أرجع " فقالوا : " يكذبون عليك " فلما حضروا الى الشيخ اخبروه ، قال : " نعم مابقى يرجع " فلم يرجع .[2]

وكان نور الدين ابن الصاحب فخر الدين عمر بن عبد العزيز بن الخليلى جرى منه شئ ، فتألم الشيخ منه ودعا عليه ، فاتفقت وفاته فى تلك المدة .[3]

واتصف ابن دقيق العيد بالانصاف ، فقد حكى الشيخ تاج الدين الدشناوى قال : " خلوت به مرة فقال بافقيه لزت برؤية الشيخ ذكى الدين عبد العظيم ، فقلت وبرؤيتك فكررر الكلام وكررت الجواب ، فقال : كان الشيخ ذكى الدين أدين منى ، ثم سكت ساعة وقال : غير أنى أعلم منه ".[4]

ولقد ذاع صيته واتسعت شهرته فى أنحاء العالم الاسلامى يؤيد ذلك ماذكره القلقشندى من أن الملك المؤيد ملك اليمن الذى اعتنق مذهب الشافعى واشتغل بالعلم واعتنى بجمع الكتب حتى اشتملت خزائنه على مائة ألف مجلد كان على صلة بالشيخ تقى الدين بن دقيق العيد ويبعث اليه بهداياه وتحفه .[5]

---

(١) الدوادار : أى ممسك الدواه ، وصاحبها يحمل داوة السلطان أو الامير ويقوم بابلاغ الرسائل عنه وتقديم القصص والشكاوى اليه .
د. سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص٤١٦

(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٧٨

(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٧٨ / ٥٧٩

(٤) الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٩٦

(٥) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ٣١

واختتم تقي الدين الطور الاخير من حياته بتوليه منصب القضاء ، وهذه الفترة على قصرها اذ لم تزد مدتها على سبعة أعوام كانت أكثر سني عمره وأيام حياته خطرا وأعظمها شأنا . فقد كان من قبل بعيدا عن الدولة وأربابها وان كان له بذلك اتصال في بعض الاحيان فهو لايعدو ماهو بسبيله من أمور الشرع والدين . أما بعد أن ولي منصب قاضي القضاة ، فقد أصبح على اتصال وثيق بالسلطان ونائب السلطان والوزير وغيرهم من أصحاب السلطة .

ولي ابن دقيق العيد منصب قاضي القضاة في يوم السبت الثامن عشر من جمادى الاولى سنة ٦٩٥ هـ(١) في عهد السلطان لاجين ، وقد تردد في قبول هذا المنصب الذي اعتبره بعض المؤرخين زلة من زلاته " لكنه تولى القضاء في آخر عمره وذاق من حلوه ومره ، وحط ذلك عند أهل المعارف والاقدار من علو قدره وحسن الظن ببعض الناس قد خل عليه البأس ، وحصل له من الملامة نصيب والمجتهد يخطئ ويصيب ، ولوحيل بينه وبين القضاء لكان عند الناس أحمد عمره ومالك دهره وشورى زمانه وأوراعي أوانه ، والمتقدم على كثير ممن تقدمه "(٢) .

ولكن هناك من الشواهد مايشير الى أن ابن دقيق العيد كان يتطلع الى هذا المنصب بعد أن بلغ بتفوقه وغزارة علمه وحسن تدينه مالم يبلغه أحد سواه من رفعة المكانة وسمو المنزلة لدى معاصريه ، وكان يريد الى جانب الرفعة المعنوية رفعة في المنصب والمرتبة وليس ثمة منصب يطمع فيه ابن دقيق العيد أكثر من منصب قاضي القضاة ، لان هذا المنصب كان في

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٤
(٢) الادفوي : الطالع السعيد ص ٣٢٥
ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٤
ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ج ١ ص ٣٢

أيامه هو أسمى مايصبوا اليه رجال الدين . وهو يقول فى احدى قصائده :

يقولون لى هلا نهضت الى العلا ... فمالذ عيش الصابر المتقنع
وهلا شددت العيس حتى تحلها ... بمصر الى ظل الجانب المرفع
ففيها من الاعيان من فيض كفه ... اذا شاء روى سبله كل بلقع
وفيها قضاة ليس يخفى عليهم ... تعين كون العلم غير مضيع (١)

فهذه القصيدة فى معناها تدل على انه كان يطمع فى منصب قاض القضاة ، فيقول أن الناس ينصحون له بالذهاب الى مصر حاضرة البلاد ومقر السلاطين والامراء حيث يجد لديهم المال الوفير ويظفر منهم بالحفاوة والتقدير ، اذ كان الامراء والسلاطين فى ذلك الوقت اذا أعجبوا بعالم ولمسوا فيه الكفاءة والجدارة أسندوا اليه منصبا يليق به ، وأهم مناصب ذلك العصر بالنسبة لرجال الدين كان منصب قاضى القضاة .

ويبدو من هذه القصيدة أن ابن دقيق العيد كان مترددا فى العمل بتلك النصيحة ، الا أنه عاد فانتصح بها حيث ترك قوص الى القاهرة لينال حظه فى هذا البلد الذى يغص بالعلماء والادباء من أهل مصر وغيرها من عواصم العالم الاسلامى ، لكنه لم يظفر بأكثر من وظيفة التدريس كما كان الحال فى حياة أستاذه العز بن عبد السلام ، فى حين انه كان يصبوا الى الظفر بمنصب قاض القضاة الذى لم يصل اليه الا فى أخريات حياته ولعل السبب فى ذلك يرجع الى أن ابن دقيق العيد كان معتزا بنفسه حافظا لماء وجهه لايجرى وراء الامراء ولايقف على أعتاب السلاطين ، يدل على ذلك قوله فيما ينبغى للعلماء اتباعه وعليهم اجتنابه .

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية ج ٦ ص ٩
مفيد النعم ومبيد النقم ص ٧٠

وفيها وفيها والمهانة ذلـــــة
فقم واسع واقصد باب رزقك واقرع
فقلت نعم أسعى اذا شئت أن أرى
ذليلا مهانا مستخفا بموضعـــى
وأسعى اذا مالذ لى طول موقفى
على باب محجوب اللقاء ممنـــع
وأسعى اذا كان النفاق طريقتى
أروح وأغـــدو فى ثيـــاب التصنـــع
وأسعى اذا لم يبق فى بقيـــــة
أراعى بها حق التقى والتـــورع (١)

فهذا الشعر الذى جاء على لسان ابن دقيق العيد يوضح أن المناصب والمراتب فى عهده لم تكن لتنال فى أكثر الاحيان الا بالمصانعة والمواهنة والنفاق واحتمال المهانة وقبـــول المذلة ، وتلك خصال لاتتوفر فى مثـــله .

هذا بالاضافة الى أن هناك ظاهرة تستحق الوقوف عندهـا والنظر اليها وهى أن تقى الدين كان مالكيا ثم اعتنق مذهب الشافعية ، وذلك دليل واضح على انه كان يتمنى منذ أن أنهى مرحلة التعلم فى حياته وبدأ مرحلة التدريس والاملاء تولـــى منصب قاضى القضاة الذى كان وقفا آنذاك على علماء الشافعية (٢) والا فأى شىء حمل ابن دقيق العيد على ترك مذهب الامام مالك وهو مذهب أهل العهد بوجه عام ومذهب أبيه بوجه خاص .

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٩
معيد النعم ومبيد النقم ص ٧٠

(٢) تعدد منصب قاضى القضاة فى مصر والقاهرة وفق تعدد مذاهب أهل السنة الاربعة على أيام السلطان الظاهر بيبـــــرس سنة ٦٦٣ هـ / ١٢٦٥ م
المقريزى: السلوك جـ ١ ص ٥٢٨

ومهما يكن من أمر فقد تولى ابن دقيق العيد منصب قاضى القضاة للديار المصرية على المذهب الشافعى واستمر فيه حتى توفاه الله عن سبع وسبعين عاما .(١)

وكان سلوكه فى القضاء مثالا وقدوة للجميع ، فكان قاضيا عادلا نزيها لايجامل فى الحق ولايبالى فى القضاء ، فأصبح ذا مكانة عالية لدى الامراء وأصحاب النفوذ والمكانة العليا فى الدولة لصلابته فى الحق وتشبثه بالشرع ، كماكان زاهدا فقد كانت القضاة يلبسون الحرير فامتنع عن ذلك وأمر بتغييرها الى الصوف .(٢)

لقد كانت وظيفة قاضى القضاه مرآة تجلت فيها شخصية ابن دقيق العيد الدينية والعلمية ، وكانت أعماله وتصرفاته أيام توليه القضاء دليلا قاطعا وبرهانا ساطعا على فرط نزاهته وشدة ورعه وعظم تقواه ، وهذا خلاف ماروى عنه " ولو لم يدخل القضاء لكان ثورى زمانه وأوزاعى أوانه ". وذلك يعنى أن القضاء أعتبر من الامور التى تحط من قدره وتقدمة على غيرة فى التقى والصلاح.(٣) ولعل بعضهم كان متأثرا فى مقالة هذا بما كان يتقول به المغرضون أو الحاقدون عليه ، يؤيد ذلك ما قاله الادفوى " وحكى شرف الدين يعقوب المالكى وكان من الفقهاء والعدول قال : كان فى نفس الصاحب تاج الدين من الشيخ ، وكان ابن الارموفى وصى بوصية ومات ، فقال الصاحب لفقير من المصريين : اذهب الى الشيخ وأطلب منه شيئا من الوصية وقل له كذا وكذا

---

(١) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٢١
المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٩٤٨

(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٣٤

(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٤

فاذا قال فرغت ، قل له لو كان فلان القوص وفلانه دفعتم ورتبتم ، فحضر بجامع مصر وذكر ما رتب فيه ، فلما فرغ وخرج رفعة بقل قمات من ساعته .(١)

وهذا يدل على أن أعداء ابن دقيق العيد كانوا كثيرا ما يتقولون عليه وينسبون اليه مالا يفعله . ويروى الادفوى قصة فى هذا المقام اذ يقول " وأخبرنى برهان الدين المصرى الحنفى الطبيب وكان قد استوطن قوص لسنوات ، قال " كنت أباشر وقفا فأخذه منى شمس الدين بن أخى الشيخ وولاه آخر ، فعز على ونظمت أبياتا فى الشيخ فبلغته ،فأنا أمشى مرة خلفه واذا به قد التفت الى وقال : " يافقيه بلغنى أنك هجوتنى ، فسكت زمانا فقال : أنشدنى والح على فأنشدته :

وليت فولى الزهد عنك بأسره
وبان لنا غير الذى كنت تظهر
ركنت الى الدنيا وباشرت أهلها
ولو كان من جبر لقد كنت تعذر

فسكت زمانا وقال : " ما حملك على هذا " فقلت " أنا رجل فقير وأباشر وقفا أخذه منى فلان " فقال " ما علمت بهذا ؟ أنت على حالك " فباشرت الوقف مده . وخطر لى الحج فجئت اليه أستأذنه فدخلت خلفه فالتفت الى وقال " أمعك هجو آخر ؟ " فقلت " لا ولكنى أريد الحج وجئت استأذن سيدى " فقال " مع السلامة ما نغير عليك " .(٢)

ومثل هذا الهجاء لم يكن يطابق الواقع ولا يصور شيئا من الحقيقة ولا يدل على ظلم ابن دقيق العيد أو جورة لان الاوقاف أخذت من برهان الدين دون علمه كما يتضح

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٤
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٨

من القصة ، وهى فى جملتها تدل على نزاهة فى الحكم وعدالته فى القضاء .

وخير دليل يصور لنا شخصية ابن دقيق العيد فى القضاء كتابه الذى أرسله الى نائبة بأخميم ويوضح له الدستور الذى يجب على القاضى انتهاجه والالتزام به فى أحكامه وكيفية معالجة مشاكل الناس وقضاياهم .

" بسم الله الرحمن الرحيم ". الفقير الى الله محمد بن على ، يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لايعصون الله ما أمرهم ، ويفعلون مايؤمرون ، هذه المكاتبة الى مجلس مخلص الدين وفقه الله لقبول النصيحة وأتاه لما يقربه قصدا صالحا ونيه صحيحة ، أصدرنا اليه بعد حمد الله الذى يعلم خائنة الاعين وما تخفى الصدور ، ويمهل حتى يلتبس الامر بالاهمال على المغرور ، تذكرة بأمر ربك ، فان يوما عند ربك كألف سنه مماتعدون ، ويحذره صفقة من باع الآخره بالدنيا ، فما أحد سواه مغبون ، عسى الله أن يرشده بهذا التذكار وينفعه وتأخذ هذه النصائح بحجزتة عن النار ، فانى اخاف أن يتردى فيجر من ولاه والعياذ بالله ، والمقتضى لاصدارة ما لمحناه من الغفلة المستحكمه على القلوب ، ومن تقاعدالهمم عن القيام بما يجب للرب على المربوب ، ومن أنسهم بهذه الدار وهم يزعجون عنها ، ومن علمهم بما بين أيديهم من عقبة كؤود وهم لا يتخففون منها ، ولا سيما القضاه الذين يحملون عبء الامانة على كواهل ضعيفة ، وظهور بصور كبار وهم نحيفه . والله ان الامر لعظيم ، وان الخطب لجسيم ولا أرى مع ذلك أمنا ولا قرارا ولا راحة ، اللهم الا رجلا سبد الآخره ورآءه واتخذ اليه

هواه ، وقصر همه وهمته على حظ نفسه من دنياه ، فغايته مطلبه الحياه والمنزلة فى قلوب الناس وتحسين المرئى والملبس والركبة والمجلس ، غير مستشعر خطة حالة ولاركاكة مقصدة ، فهذا لا كلام معه ، فإنك لا تسمع الموتى وما أنت بمسمع من فى القبور . فاتق الله الذى بين الحين تقوم ، وأقصر أملك عليه ، فالمحروم من أمله غير مرحوم . وما أنا وأنتم أيها السفر الا كما قال حبيب العجمى وقد قال له قائل : ليتنا لم نخلق ، فقال : قد وقعتم فاحتالوا . وان خفى عليك بعض هذا الخطر وشغلتك الدنيا أن تقضى من معرفة الوطر ، فتأمل كلام النبوه : القضاة ثلاثة ، قاض فى الجنة وقاضيان فى النار ، وقوله صلى الله عليه وسلم لمن خاطبه مشفقا عليه : لا تأمرن على اثنين ولا تلين مال اليتيم ، لا حول ولا قوة الا بالله . وما أنا والسير فى متلف يمرح بالذكر الظابط ، هيهات ، جف القلم ونفذ أمر الله فلا راد لما حكم ، ومن هنالك شم الناس عن فم الصديق رائحة الكبد المشوية ، وقال الفاروق ليت أم عمر لم تلده واستلم عثمان وقال من أغمد سيفه فهو حر ، وقال لى والخزائن مملوه ذهبا وفضة ، من يشترى سيفى هذا ولو وجدت ما أشترى به رداء ما بعته ، وقطع الخوف نياط قلب عمر بن عبد العزيز فمات من خشية المرض . وعلق بعض السلف سوطا يؤدب نفسه اذا فتر ، أفترى ذلك سدى ، أم نحن المقربون وهم البعداء ، فهذه أحوال لا تؤخذ من كتاب العلم والاجاره والجنايات : نعم كلها تنال بالخضوع والخشوع وان تظمأ وتجوع . وما يعينك على الامر الذى دعوتك اليه ويزودك فى سفرك للغرض عليه أن تجعل لك وقتا تعمره بالتذكير والتفكير وانابة تجعلها معده لجلاء قلبك ، فانة اذا استحكم

صداه صعب تلافيه وأعرض عنه حتى هو أعلم بما فيه ، فاجعل أكثر همومك لاستعداد الميعاد والتأهب لجواب الملك الجواد فانه يقول " فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون " ومهما وجدت من همتك قصورا واستشعرت من نفسك نفورا فاجأر اليه وقف ببابه وأطلب منه فانه لا يعرض عمن صدق ولا يغرب عن علمه خفايا الضمائر . فهذه نصيحتي اليك وحجتي بين يدي الله ان فرطت عليك ، فتسأل الله لي ولك قلبا شاكرا ولسانا ذاكرا وثغرا مطمئنة بمنه وكرمه وخفي لطفه والسلام"(١)

فلا غرو ان وصفه معاصروه من المؤرخين بالنزاهه والتقى والورع والتقدم على جميع معاصريه في العلوم الدينية والفنون الشرعية وبأنه محى الشريعة ومصحح الاوضاع الدينية وبأنه ينطبق عليه الحديث النبوى " ان الله يبعث على رأس كل مائة عام من يجدد شباب الامه وأمر دينها " . وفي هذا يقول السبكي ما نصه : " ولم ندرك أحدا من مشايخنا يختلف في أن ابن دقيق العيد هو العالم المبعوث على المعمائة المشار اليه في الحديث المصطفوى النبوى صلى الله عليه وسلم " . (٢)

ورغم انه كان كثير المكارم النفسانية والمحاسن الانسانية "لكنه كان غالبا في فاقة تلزمه الاضاقة فيحتاج الى الاستدانة ، وقد تقض به الى الوجه المعروف بالصيانة"(٣)

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد من ٥٩٧ / ٥٩٨ / ٥٩٩
السيوطى : حسن المحاضرة ج ١ ص ١٣٥ / ١٣٦
المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٤٨
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٣٤

وحكى الشيخ تاج الدين محمد بن أحمد الدشناوى فقال " حضرت عنده ليله وهو يطلب شمعة فلم يجد معه ثمنها فقال لاولاده : فيكم من معه درهم فسكتوا ، وأردت أن أقول معى درهم فخشيت أن ينكر على فانه كان اذ ذاك قاضى القضاة ، فكرر الكلام ، فقلت معى درهم ، فقال : ماسكوتك (١)

وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد قد ذاق مرارة الفاقه وقاسى من الفقر الكثير ، وانه كان يبلغ به الفقر الى درجة يكون لامناص معها له من أحد أمرين ، اما أن يبذل ماء الوجه الذى عرف بالصيانة أو انه يحفظ ماء وجهه ويربأ بكرامته فلا يستجدى الناس ، وحتى اذا ما أجبرته حالته على الاستجداء أو طلب المساعدة لايكون ذلك مراحة ولكنه يكون تلميحا ، ويذكر ابن الكويك التاجر أنه قال " وجدته مرة فى فاقة فقلت له : ألا تكتب ورقة الى صاحب اليمن ؟ فكتب ورقة لطيفة جاء فيها :

تجادل أرباب الفضائل اذا رأوا
بضاعتهم موكوسة الحظ فى الثمن
وقالوا عرضناها فلم نلق طالبا
ولامن له فى مثلها نظر حسن
ولم يبق الا رفضها واطراحها
فقلت لهم لاتعجلوا السوق باليمن (٢)

وهكذا كان الشيخ تقى الدين محمد بن دقيق العيد ، ورعا زاهدا كريما " وبالجملة فالاستغراق فى مناقبه يخرج عن الامكان ويحتاج الى توالى الازمان "(٣)

---

(١) ابن دقيق العيد : احكام الاحكام جـ ١ ص ٣٢
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٣٥
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٨

ابن دقيق العيد
العالم الفقيه
والشاعر الاديب

نشأ ابن دقيق العيد - كما اوضحنا - في بيت من أشرف بيوتات أهل الصعيد ، وهذا البيت عرف أفراده بالعلم والدين وانه أخذ العلم عن أبيه وعن الشيخ بهاء الدين هبة الله القفطي وغيرهما ، ثم ارتحل الى القاهرة فسمع بها الحديث واتصل بالشيخ عز الدين عبد السلام ، ثم ارتحل الى دمشق وسمع من علمائها . ويقول ابن سيد الناس في ترجمة له " سمع الحديث بمصر والشام والحجاز على تحر في ذلك واحتراز "[1] وروى الادفوى عن الحافظ محمد بن سيد الناس أنه قال في ترجمته له مانصه " لم أر مثله فيمن رأيت ولاحملت من أجل منه فيما رأيت ورويت ، وكان للعلوم جامعا وفي فنونها بارعا مقدما في معرفة علل الحديث على أقرانه منفردا بهذا الفن النفيس في زمانه ."[2]

ومما يدل على تمكن ابن دقيق العيد في علم الحديث أنه كتب في هذا كتابا أسماه " الاقتراح في معرفة الإصطلاح". وكل من ذكره أطرى عليه ووصفه بأنه كتاب جليل الفائدة . وكان على معرفة كبيرة بعلم مصطلح الحديث ممتنعا عن رواية الحديث لادنى شك يخامره . ذكر ابن حجر " أن قطب الدين الحلبي قال : أتيته - يعني ابن دقيق العيد - بجزء سمعه من ابن رواح والطبقة بخطه ، فقال : حتى أنظر فيه ثم عدت له بعد مدة فقال : هو خطي ولكن لا أحقق سماعه ولا أذكره ولم

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٨
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٨

يحدث به ". ثم قال ابن حجر " وكذلك لم يحدث عن ابن المغير مع صحة سماعه منه لكن شك هل نعس حال السماع أم لا"[1]

وهذا أكبر شاهد على أن ابن دقيق العيد كان يتشدد فى رواية الحديث ، ورغم أن الطبقة كانت بخطة فلم يرضى أن يروى عن ابن المغير مع صحة سماعه منه لانه شك فى كيفية تحمله عنه اذ لم يستطع أن يذكر حالته التى كان عليها أثناء سماعه هل كان نعسا أم كان يقظا .

أما كتابه المسمى " الالمام الجامع أحاديث الاحكام " فلو كملت نسخته فى الوجود لأغنت عن كل مصنف فى ذلك موجود. قال قاضى القضاة موفق الدين عبد الله الحنبلى ، سمعت الشيخ تقى الدين بن تيمية يقول " هو كتاب الاسلام " وقال لى الشيخ فخر الدين التوبرى " ماعمل أحد مثله ولا الحافظ الضياء ولاجدى أبو البركات وجاز كتابه الالمام مع صغر حجمه من هذا الفن جملة من علمه ."[2]

كما صنف وأملى " احكام الاحكام شرح عمدة الاحكام " وهو يدل على منزلة فى العلم ومكانة فى الفقه .

وخلاصة القول فابن دقيق العيد عالم من علماء الحديث ، وهو أحد الحفاظ الثقات ، وليس غريبا أن يكلف برواية الحديث ودراسة علومه وأن يعنى بذلك عناية كبرى ، اذا عرفنا أن ابن دقيق العيد كان اماما من أئمة الفقه . فمعرفة علم الفقه على الوجه الاكمل تقتضى دراية الحديث ومعرفة

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٣
(٢) القلقشندى . ضبح الاعشى ج ١ ص ٤٧١
ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ج ١ ص ٢٠
بن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٢

علله وطرق الرواية والاسانيد لان الاحكام الفقهية انما هى مستمدة من كتاب الله وسنة رسوله . ومن هنا كانت عناية العلماء والفقهاء وبخاصة المجتهدون بالحديث وطرق روايته لان الحديث كان عرضة للوضع والتدليس بسبب تعدد الفرق الاسلامية من جهة وظهور الشعوبية من جهة أخرى التى كان لها دخل كبير فى وضع كثير من الاحاديث ، فالشيعة كانوا كثيرا ماينسبون الى النبى عليه السلام أحاديث تتعلق بأمامة على وأولاده ، وكذلك رجال علم الكلام كالمعتزلة والاشاعرة وغيرهم فكل فرقة منهم كانت تنسب الى النبى من الاحاديث مايؤيد وجهة نظرها .

ثم يجىء دور ابن دقيق العيد بمعرفته لعلم التفسير وأصول الفقه . يقول الادفوى " ان ذكر التفسير فمحمد فيه محمود المذهب ، أو الحديث فالقشيرى فيه صاحب الرقم المعلم والطراز المذهب ، أو الفقه فأبو الفتح العزيز الامام الذى اليه الاجتهاد ينسب ، أو الاصول فاين ابن الخطيب من الخطيب ، وهل يقرن المخطىء بالمصيب ، ثم قال " وقام بوظيفة التحقيق والتدقيق التى لايطيقها غيره من أهل زمنه ولاعليها يقوى مع ترك المباهاة بما لديه من الفضائل والسلامة من الدعوى وجعل وظيفة العلم والعمل له ملة حتى قال بعض الفضلاء من مائة سنة ، مارأى الناس مثله حسن علما ودينا ونزاهة فعظم قدرا وجاها ووجاهة "(١)

يروى عبد العظيم بن أبى الاصبع صاحب البديع فى كتابه قال : " ذكرت للفقيه الفاضل تقى الدين محمد بن على بن وهب القشيرى أبقاه الله تعالى وهو من الزكاء والمعرفة

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٧

على حالة لا أعرف أحد فى زمن عليها ، ذكرت له عشرة وجوه من المبالغة فى قوله تعالى " أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب " وغبت عنه قليلا ، ثم اجتمعت به فذكر لى أنه استنبط فيها أربعة وعشرين وجها من المبالغة ، فسألته أن يكتبها لى فكتبها بخطه وسمعتها عنه بقراءته واعترفت له بالفضل ".(١)

وهذا دليل على رسوخ قدم ابن دقيق العيد فى العلم وتفوقه فى شتى أنواعه على جميع أقرانه ، وقد وصفه الحافظ فتح الدين ابن سيد الناس فى ترجمته بماهو أهل له " وكان حسن الاستنباط للاحكام والمعانى من السنة والكتاب بلب يسحر الالباب وفكر يفتح مايستغلق على غيره من الابواب ، مستعينا على ذلك بماراوه من العلوم ، مستبينا ماهنالك بماهواه من مدارك المفهوم مبرز فى العلوم النقلية والعقلية والمسالك الاثرية والمدارك النظرية .

وكان من العلوم بحيث يقضى له من كل علم بالجميع(٢)

وربما لاتتعدى معرفة الكثيرين على أن ابن دقيق العيد كان قاضى قضاة مصر ومن علمائها العاملين ، فالى جانب هذا كان شاعرا وأديبا . وان كان أرباب فن القول يمتاز كل منهم بنوع من أنواعه أو فن من فنونه كأنه يبرز أحدهم فى الشعر والآخر فى الكتابة والانشاء والثالث فى الخطابة ، فان الشيخ قد جمع بين تلك الفنون مع الاجادة والابداع والتفوق " اذا خطب أسهب فى البلاغة وأطنب فى البراعة ، أو كتب فوحى الكلام يتنزل على يراعه(٣)

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٥
(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٦ ص ٣/٢
(٣) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣١٧

يقول الادفوى عن ابن سيد الناس في ترجمته لابن دقيق العيد مانصه " وله مع ذلك في الادب باع وساع ، وكرم طباع لم يخل في بعضها من حسن انطباع ، حتى لقد كان محمود الكاتب المجيد في تلك المذاهب المشهود له بالتقدم فيما يشاء من الانشاء على أهل المشارق و المغارب ، لم تر عيني آدب منه " . (١)

ومن نثره " الحمد لله و الصلاه و السلام على رسول الله وبعد : فان الفقه في الدين منزلة لا يخفى شرفها وعلاها ولا يحتجب عن العقول طوالعها و أضواها ، و أرفعها بعد فهم كتاب الله المنزل البحث عن معاني حديث نبية المرسل ، اذ بذلك تثبت القواعد ويستقر الاساس ، وعنه يقوم الاجماع ويصدر القياس ، وما تقدم شرعا تعين تقديمة شروعا ، وما كان محمولا على الرأس لا يحسن أن يجعل موضوعا ، ولكن شرط ذلك عندنا أن يحفظ هذا النظام ، ويجعل الرأى هو المأموم و النص هو الامام ، وترد المذاهب اليه ، وتضمحل الاراء المنتشرة حتى تقف بين يدية ، وأما أن يجعل الفرع أصلا يرد النص اليه بالتكلف و التحيل .. وأنى يصح الوزن بميزان مال أحد الجانبين فيه ؟ ومتى ينصف حاكم ملكته عصبية العصبية ، وأين يقع الحق من خاطر أخذته العزة بالحمية وانما يحكم بالعدل عند تعادل الطرفين ، ويظهر الجور عند تقابل المنحرفين " . (٢)

ومع ذلك فكان خفيف الروح لطيفا على نسك وورع ودين متبع ينشد الشعر و الموشح و الزجل و الموال ، وكان يستحسن

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٢١٩

(٢) السبكى : طبقات الشافعية ج ٦ ص ١٢
الادفوى : الطالع السعيد ص ٥٨٧/٥٨٨

ذلك(١) ويجب سماعة وانشاده ، يدل على ذلك ما رواه الادفـــوى اذ قال " وحكى لى صاحبنا الاديب الثقة مجد الدين عمـــر بن الملطى قال : كنت مره بمصر فى حاجة وطلعت الى القاهـــرة فقالوا الشيخ طلبك مرات فجئت اليه ، فقال اين كنت ؟ قلت بمصر فى حاجة ، فقال : طلبتك ، سمعت انسانا ينشد خـــارج الكاملية :

بكيت قالوا عاشـــق
سكت قالوا قد ســـلا
طلبت قالوا ذاكـــر
ما أكثر فضول النـــاس

قال فاعجبنى .(٢)

ومن نظمـــه .

يامعرضا عنى ولست بمعـــرض
بل ناقضا عهدى ولست بناقـــض
أتعبتنى بخلائق لك لم تفـــد
فيها وقد جمحت رياضة راقـــض
أرضيت أن تختار رفض مدنيـــا
فتشفع الاعداء أنك رافـــض(٣)

ومن نظمة أيضـــا

أتعبت نفسك بين ذله كـــادح
طلب الحياه وبين حرص مؤامـــل

---

(١) : ابن دقيق العيد : احكام الاحكام ج ١ ص ٢٤
(٢) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٧
(٣) ابن حجر : الدرر الكامنة ج ٤ ص ٩٦ حاشية ١
الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٢٣

وأضعت عمرك لا خلاعة ما جـــــن
حصلت فيه ولا وقار مبجـــــل
وتركت حظ النفس فى الدنيا وفى الا
خرى ورحت عن الجميع بمعـــــزل(١)

ومن شـــعر ابن دقيق العيـــد

ذروا فى السرى نحو الجناب الممنـــع
لذيذ الكرى واخفوا له كل مضجع
واهدوا اذا جئتم الى خير مربـــع
تحية مضنى هائم القلب موجـــع
سريع الى داعى الصبابة طيـــع
يقوم بأحكام الهوى ويقيمهـــا
فكم ليله قد نازلته همومهـــا
فسامرها حتى تولت نجومهـــا
له فكره فيمن يحب فذ يمهـــا
وطرف الى اللقيا كثير التطلـع
وكم ذاق فى أحواله طعم سجنـــة
وكم عاد منه من مواقف فتنـــة
ولم أنه ياتى بها بعد أنـــه
تتم على سر له فى أكنـــة
وتجبر عن قلب له متقطـــع (٢)

بهذا تتضح شخصية ابن دقيق العيد الادبيه وميلـــه الى الوعاية شأنه فى ذلك شأن المصريين فهم لا يعشـــقون

---

(١) ابن حجر : الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٩٦
(٢) السبكى : طبقات الشافعية جـ ٦ ص ٦
الكتبى : فوات الوفيات جـ ٢ ص ٣٥

التزمت ولا يميلون الى السكينة المملـــه .

هذا وقد كانت وفاتة فى يوم الجمعة الحادى عشر من صفـــر سنه ٧٠٢ هـ ، ودفن يوم السبت بفسح المقطم ، وكان ذلـــك يوما مشهودا عزيزا فى الوجود سارع الناس اليه ووقـــف جيش مصر ينتظر الصلاة عليه ، ورثاه جماعة من الفضـــلاء والادباء بالقاهرة وقـــوص .(١)

بعض شـــيوخ هـــذا العصـــر

أشهر مشايخ هذا العصر هو عز الدين بن عبد الســـلام شيخ ابن دقيق العيد وأستاذه ، سماه ابن دقيق العيـــد بسلطان العلماء لعلمه الغزير واطلاعة الواسع وايمانـــة القوى وحجتة البالغة وزهده وحبه للحق . هذا وقد كانـــت ولادة ابن عبد السلام فى بلاد الشام سنه ٥٧٧ هـ/ ١١٨١ م ومات بالقاهرة سنه ٦٦٠ هـ / ١٢٦٢ م أى أنه عمر نحوا من ٨٣ سنه ومعنى هذا أنه عاصر الدولتين الايوبية والمملوكية كتلميذه ابن دقيق العيد ، وان كانت المده التى قضاها فى ظل الدوله الايوبية أكبر من الفترة التى عاشها فى دوله المماليـــك ، وذلك على العكس من حياه ابن دقيق العيد اذ قضى أكثرهـــا فى عصر المماليك . وابن عبد السلام عاش فى بلاد الشـــام حتى سنه ٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م ثم خرج منها الى مصر حيث أقـــام بها حتى وافته المنية ، وهذا يعنى أنه أمضى فى مصـــر نحوا من احدى وعشرين سنه ولى خلالها مناصب هامة منهـــا

---

(١) الادفوى : الطالع السعيد ص ٣٣٨

المقريزى : السلوك ج ١ ص ٩٤٨

قاض القضاه والتدريس بالمدرسة الصالحية ، وكان اليه أمر الافتاء فلا يجرؤ أحد من العلماء على الافتاء مع وجود ابن عبد السلام فى مصر والقاهرة . وكان معروفا بالمحافظة على الشريعة والتعصب فى الدين والتشدد فى الحق لا يرهب السلاطين ولا يخشى سطوة الامراء ، يدل على ذلك مواقفه المشهورة من الملوك والامراء فى مصر والشام . وابن دقيق العيد أشبه بأستاذه فى التعصب للحق والتشدد فى الدين. وقد كان ابن عبد السلام عالما مبرزا أقر له الجميع بالفضل والتقدم فى العلم والدين والمداله فى الحكم والنزاهه فى القضاء ، وقد ذكروا له مؤلفات أربت على العشرين كتابا منها :

١ - الفتاوى الموصلية

٢ - مختصر النهاية واسمة الغاية

٣ - شجرة المعارف

٤ - القواعد الكبرى فى الشريعة

٥ - مجاز القرآن فى الشريعة

٦ - مختصر صحيح مسلم

٧ - الإمام فى أدله الاحكام

عموما فان كتبه لاتخرج عن دائرة العلوم الدينية اذ أن بعضها فى التفسير والحديث وبعضها فى الاصول والفقة والبعض الاخر فى التصوف ، وله كتاب مشهور باسم " حل الرموز ومفاتيح الكنوز " وهو فى التصوف ، ولا عجب أن يكون صوفيا ، فقد كان يدرس فى المدرسة الصالحية الفقة وأصوله وعلوم الحديث ، وفى الوقت ذاته كان شيخ خانقاه

سعيد السعداء . [١] وهو بهذا قد زاد على تلميذه ابن دقيق العيد ، اذ لم يكتب الاخير فى التصوف ولا تولى مشيخة خانقاه ، بل روى عنه ما يدل على أنه كان ينكر على المتصوفة ما كانوا يرتكبونه من أفعال وما يتفوهون به من أقوال ويحكى أنه قال لتلاميذه بالمدرسة الكاملية حين سمع متصوفا يقول كلاما مبهما " هل فهمتم شيئا " فقالوا : "لا " قال " وأنا لم أفهم منه شيئا". وهذا يدل على أن ابن دقيق العيد لم يكن من المتصوفة .[٢]

ولعل ذلك يقودنا الى معرفة واتجاه الثقافة والطابع العام للحركة الفكرية والعلمية فى عصر شخصية البحث وهو أن جهود العلماء انصرفت الى الدين ، وذلك بحكم الاوضاع السياسية والدينية التى كانت تسود ذلك العصر فالملاحظ أن مصر شهدت فى عصر المماليك نشاطا دينيا منقطع النظير ، وقد يكون السر فى هذا النشاط الدينى هو شعور المماليك أنفسهم بأنهم أغراب عن البلاد وأهلها مغتصبون للحكم والعرش من أصحابه الشرعيين ، ولذلك ارادوا أن يتخذوا من الدين ورجاله ستارا يخفى هذه الحقائق عن أعين المحكومين ، ويقربهم الى قلوب الشعب ، ومادام المماليك مسلمون يؤمنون بالله ورسوله ويحرصون على

---

(١) هى دار السعيد السعداء قبر عتيق الخليفة المستنصر، فلما حكم صلاح الدين وقفها على الصوفية فى سنه ٥٦٩ هـ، وهى أول خانقاه بديار مصر ونعت شيخها بشيخ الشيوخ . السيوطى : حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٧

(٢) ترجمة عز الدين بن عبد السلام مأخوذه من كتاب طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٨٠ ، وفوات الوفيات جـ ١ ص ٣٦٦ ،وحسن المحاضرة جـ ١ ص ١٤١/١٤٢/١٩٢ وجـ ٢ ص ١٣٠ ، وبدائع الزهور جـ ١ ص ٩٤/٩٥/١٠١/١٢٠

اقامة شعائر الدين واحياء سنن الاولين ويعمرون المساجد فهم اذا حكام صالحون ولا داعي للتفكير كثيرا في أعلهم وطريقة وصولهم الى الحكم .(١)

وقد تجلى تطور عناية المصريين بالتاريخ على اختلاف أنواعه وتعدد فروعه في العصر الاسلامي منذ القرن الثاني للهجرة ، واستمر نشاط هؤلاء المؤرخين قويا وظل تيارهم جارفا وبخاصة حين أستشعرت مصر ذاتيتها المستقلة .

ولسنا هنا بصدد تتبع الحركة التاريخية في مصر وبيان ما وضع في ذلك من مؤلفات في علم التاريخ في مختلف العصور ، وانما نحن بصدد عصر معين بالذات وهي تلك الحقبة التي عاشها ابن دقيق العيد . ففي هذا العصر ظهر عدد كبير من المؤرخين ولعل أشهرهم هو القاضي محي الدين عبد الله بن عبد الظاهر المولود بالقاهرة سنه ٦٢٠ هـ/١٢٢٣ م المتوفى سنه ٦٩٢ هـ / ١٢٩٣ م وقد تولى القضاء ورياسة ديوان الرسائل للملك الظاهر بيبرس ، وقد وضع هذا القاضي عدة كتب تاريخية نذكر منها " الروضة البهية الزاهره والخطط المعزية القاهرة " . والواضح من أسم هذا الكتاب أنه من سلسلة حلقات فن الخطط الذي بدأ به عبد الرحمن بن عبد الحكم في كتابة فتوح مصر وتحدث فيه عن خطط الفسطاط وتبعه عدد من المؤرخين المصريين الذين تحدثوا عن الخطط أيضا ، الى أن جاء ابن عبد الظاهر وتحدث عن خطط القاهرة ، وله كتاب اسمه " الالطاف الخفية من السيرة الشريفة السلطانية الملكية الاشرفيه " وهو في أخبار مصر في عهد الاشرف خليل قلاون أنتهى به الى حوادث سنه ٦٩٠ هـ / ١٢٩١ م . ووضع فخر الدين عثمان النابلسي تاريخ الفيوم

(١) د. سعيد عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٣٦ /٣٣٧

وبلاده انتهى فيه بحوادث سنه ٦٤١هـ/١٢٤٣م أما ابن العماد الاسكندرانى المتوفى سنه ٦٧٣هـ/١٢٧٤م فقد وضع كتابا فى " تاريخ الاسكندرية " ووضع يحيى بن حميده المتوفى سنة ٦٤٠هـ/١٢٤٢م كتابا فى " تاريخ مصر العام " مرتبا حسب السنين . كما وضع جمال الدين القفطى المتوفى سنه ٦٤٦هـ/١٢٤٨م كتابا فى تاريخ مصر أنتهى به الى حكم صلاح الدين . وكتب عبد الله بن محمد المعروف بابن ميسر المتوفى سنة ٦٧٧هـ/١٢٧٨م كتابة " تاريخ مصر " جعلة وقفا على تاريخ الفاطمين . وكتب جمال الدين بن واصل المتوفى سنه ٦٩٧ هـ / ١٢٩٨م كتابة " مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب " .

ومن هذا كله نستطيع أن ندرك أن المصريين عنوا فى هذه الفترة بتاريخ بلدهم ورجالها شأنهم فى ذلك فى كل العصور التاريخية .

المراجـــع والمصـــادر

ابن الاثيـــر : (عز الدين أبو الحســـن علـــى)
= اللباب فى تهذيب الانســـــان
جزءان مطبعة السعادة بالقاهرة ١٣٥٧ هـ

الادفوى : (كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب)
= الطالع السعيد الجامع لاسماء الفضلاء والـــرواه
بأعلى الصعيد, مطبعة الجماليه بالقاهرة ١٣٣٣ هـ
وطبعة الدار المصرية للتاليف والترجمة ١٩٦٦ م

ابن أيـــاس : (أبو البركات محمد بن أحمـــد)
= بدائع الزهور فى وقائع الدهـــور
جزءان المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٣١١ هـ

ابن تغرى بردى : (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)
= النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهـرة
١٢ جزء مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٩٢٩ م

ابن دقيق العيد : (تقى الدين محمد بن وهـــب)
= احكام الاحكام شرح عمده الاحكام
الجزء الاول مطبعة السنة المحمديـــــة
بالقاهرة ١٣٧٢ هـ

الذهبى : (شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمـــان)
= تذكـــرة الحفـــاظ
٥ أجزاء طبعة حيدر أبـــاد ١٣٣٣ هـ

السبكى : (عبد الوهاب بن علـــــى)
= طبقات الشافعية الكبـــرى
٦ أجزاء المطبعة الحسينية بالقاهـرة ١٣٢٤ هـ

= معيد النعم ومبيد النقـــم
مطبعة دار الكتاب العربى بالقاهرة ١٣٦٧ هـ

سعيد عبد الفتاح عاشـــور (دكتـــور)
= العصر المماليكى فى مصـــر والشـــام
القاهـــــرة ١٩٦٥

السيوطى : (جلال الدين عبد الرحمـــن)
= حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهـــرة
جزءان مطبعة إدارة الوطـــن ١٢٩٩ هـ

ابن شاكر الكتبى : (محمد بن شاكر بن أحمـــد)
= فـــوات الوفيـــات
جزءان مطبعة بولاق بالقاهـــرة ١٢٨٣ هـ
١٨٨١م

العسقلانى : (ابـــن حجـــر)
= الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنـــة
٤ أجزاء دار المعارف العثمانية ١٣٤٩ هـ

ابن العماد : (أبو الفلاح عبد الحى الحنبلـــى)
= شذرات الذهب فى أخبار من ذهـــب
١٢ جزء مكتبة القدسى بالقاهرة ١٣٥٠/١٣٥٣ هـ

القلقشندى : (أبو العباس أحمـــــد)
= صبح الاعشـــى فى صناعة الانشـــــا
١٤ جزء القاهـــرة ١٩١٣ / ١٩٢٠ م

محمد عبده الحجاجـــــى
= قوص فى التاريخ الاســـــلامى
الهيئة المصرية العامة للكتـــاب ١٩٨٢

المقريزى : (تقى الدين أحمـــد بن علـــى)
= كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك
الجزءين الاول والثانى فى ٦ مجلدات تحقيق دكتـــور
محمد مصطفى زيادة مطبعة دار الكتب ١٩٣٤/١٩٤٢

والجزءين الثالث والرابع فى ٦ مجلدات تحقيـــــق
دكتور سعيد عبد الفتاح عاشور مطبعة دار الكتب ١٩٧١/١٩٧٣

تم بحمد الله تعالى تصوير وطبع
هذه المجلة بقسم التصوير بمطبعة جامعة
الاسكندرية فى يوم السبت ٢٢ من ذوالحجة
سنة ١٤٠٥ هـ الموافق ٧ سبتمبر سنة ١٩٨٥م
مدير المطبعة
محمد محمد سليم